العرب
الخميس 2021/09/23
السنة 44 العدد 12188

عبر تصفية قادة داعش.. فرنسا تبحث عن خروج آمن من غرب أفريقيا

تقويض قدرات التنظيم يعزز نفوذ جهاديين منافسين على الأرض

ينظـر متابعون إلى عمليات تصفية قادة الجماعات التكفيرية المسلحة على أنها لا تعدو أن تكون وسـيلة بيد الحكومات الغربية وفي مقدمتها فرنسـا للهروب من شبح الإخفاق من خلال توظيف ذلك دعائيا كبديل عن الأهداف الأخرى المعلنة التي لم تعد قابلة للتحقق.

هشام النجار
كاتب مصري

القاهـرة – عكـس احتفـاء الرئيس الفرنسـي إيمانويـل ماكـرون بعمليـة تصفيـة قوات بـلاده لزعيـم داعش في الصحـراء الكبـرى عدنـان أبووليـد الصحراوي على حسابه في موقع تويتر الخميس الماضي حاجة باريس إلى نصر رمزي يعوض خسـائر المرحلة السابقة على يد التنظيم الجهادي النشط في كل من في مالي وبوركينا فاسو والنيجر.

وبعثت عمليـة تصفية زعيم داعش، الـذي يُعـد من الخصـوم الرئيسـيين لفرنسا في المنطقة، برسائل دعم معنوي للحملـة الأوروبية التي تقودها فرنسـا وألمانيـا فـي منطقـة السـاحل الغربي لأفريقيا، حيث ينشط تنظيم داعش على طول الحدود بين مالي والنيجر، وهو ما بـدا مفهومًا في سـياقات تركيز باريس على خلـق هالة إعلامية حـول العملية باعتبارها إنجازًا ميدانيًا ربما يعوضها عن نكسات أمنية وعسكرية سابقة.

إرهاصات الرحيل

عكس تزامن عملية مقتل الصحراوي مـع تداعيـات الانسـحاب الأميركي من أفغانسـتان، وما خلفه من آثار سـلبية وردود أفعـال غاضبـة علـى مسـتوى العالم وما سـببه من إحبـاط لدى عدد من القوى الغربيـة المنخرطة في جهود مكافحة الإرهاب داخـل مناطق مختلفة حـول العالـم، رغبة باريـس في تجاوز المعضلـة الأفغانية وجلـب بعض الثقة للقوات الفرنسية عبر امتصاص حماس الجهاديـين وإخمـاد نشـوتهم بنصـر طالبـان من خلال توجيه ضربات نوعية هدفهـا إيقاظهـم على واقـع مغاير في أفريقيا.

سبق مقتل الصحراوي عبر غارة في شـرق مالي نجاح القوات الفرنسية في اصطيـاد قياديين آخريـن ينتميان إلى داعش وهما أبوعبد الرحمن الصحراوي الذي كان مكلفًا بديوان القضاء، والثاني عيسـى الصحـراوي المسـؤول المالـي للتنظيم في الصحراء الكبرى.

وذكـرت وزارة الجيوش الفرنسـية أنها قضت على عناصر مهمة في تنظيم الدولة الإسلامية بالصحراء الكبرى في يونيو الماضي، مـن ضمنها الدادي ولد شـعيب المكنى بأبي الـدردار، والمحمود أغ باي المكنى بإيـكاراي، وهما من أهم عناصر داعش.

لا يخلـو اسـتهداف فرنسـا لقـادة داعـش في السـاحل والصحـراء، وفي مقدمتهـم القيـادي البـارز أبووليـد الصحراوي، من مؤشـرات سلبية بشأن اسـتمرار القوات الفرنسية من عدمه في السـاحة الأفريقية خاصـة بعد الإعلان عن انسـحابها التدريجـي، لأن تكثيف الهجمات على داعـش وتصفية رموزه يصب في مصلحة منافسه في القاعدة الـذي يمثلـه تحالف نصرة الإسـلام والمسـلمين ويبـدي مرونـة نسـبية بشـأن الحوار والتفـاوض ويميل إلى الانخراط في الحالة المحلية دون إعطاء أولوية للجهاد العابر للحدود.

ورغم ما تمثله عملية تصفية أبووليد الصحراوي مـن نصر معنـوي للقوات الفرنسـية إلا أن قراءتهـا فـي ضـوء الانسحاب الأميركي من أفغانستان دفعت بعض الدول الأوروبية التي تضررت منه وتخشـى تمزق جهودها هي الأخرى فـي أفريقيا إلى تبني مقاربة هدفها إثبات الوجود عبر عمليات تعكس عدم تأثرها بالفشل الأميركي في السـاحة الأفغانيـة. وفي نفـس الوقت تتعلـم من الدرس الأفغانـي، الأمر الذي وضـح مـن خـلال توخـي نـزع أنياب داعش الـذي يمثل الخطـر الأكبر الذي هـدد القوات الغربية أثنـاء تنفيذ مهمة الإجلاء من كابـول حيث قام بتفجير في المطار أودى بحياة العشرات.

يعني ذلك أن فرنسـا في الوقت الذي أرادت فيـه خلق انتصـار دعائي يقوي عزيمة جنودها وحلفائها ويثبط نشـوة الجهاديـين في ضـوء المسـتجدات في أفغانسـتان، تركت انطباعًا سلبيًا بشأن قـرب رحيـل قواتهـا من دول السـاحل والصحـراء، لأن اسـتهداف داعـش وتقويـض قدراته يعنيـان توفير إجلاء آمن وتكريسـا لنفوذ جهاديين منافسين علـى الأرض، وفق معادلـة تعني رضاء الغرب بمجـرد اختراق الحالة الجهادية والمناورة بجناح ضد آخر وترك الساحة دون حسم نهائي أو إحراز انتصار كامل على الطيف الواسع للجماعات المتطرفة المسلحة.

من المستفيد؟

رغم الخسـائر التـي تكبدها تنظيم الدولة الإسـلامية في الصحراء الكبرى واصل عزمه على فرض تطبيق الشريعة بشـكل صـارم متهمًا القاعـدة بالميوعة العقائدية والتهاون في تطبيق الشريعة،

> عملية تصفية زعيم داعش بعثت برسائل دعم معنوي للحملة الأوروبية التي تقودها فرنسا وألمانيا في منطقة الساحل الغربي لأفريقيا

مهمة معقدة

وظل ذلك التنافس فـي مواجهة القاعدة يفيد مجموعـة أبوالوليـد الصحراوي لمواصلة مد نفوذه.

وتُعـد جماعـة نصـرة الإسـلام والمسـلمين أكبـر مـن حيـث العـدد والإمكانيـات مقارنـةً بتنظيـم الدولـة الإسـلامية فـي الصحـراء الكبـرى، ويعـوض الأخير هذا الفارق باسـتمالة السـكان المحليـين بالرشـاوى وأحيانًا بالترهيب لتمكينه من الإيقاع بضحاياه، سـواء مـن الأجانـب أو مـن المدنيـين المحليين.

لهذه الأسـباب مجتمعة، المتمثلة في الابتزاز والحصول على الفدى والأموال مقابل إطلاق المخطوفين وتثبيت الزعامة والمنافسة مع الكيانات الموالية للقاعدة، شـرع تنظيـم داعـش فـي الصحـراء الكبرى بقيـادة أبوالوليـد الصحراوي في تطويـر مجموعته، وبحلـول نهاية عـام 2019 بـدأ التنظيم يشـن هجمات نوعية متطورة ومؤلمة في مالي والنيجر وبوركينا فاسـو، مسـتخدمًا الطائرات دون طيار للقيام بعمليات استطلاع قبل شـن هجماته، ومسـتفيدًا من الأسلحة المتطورة التي يحصل عليها كغنيمة بعد عملياته ضد تمركزات القوات الأجنبية.

ترتـب على صعود داعش وتوسـعه فـي الصحراء الكبرى تنفيـذ العديد من الهجمات ضد القوات الفرنسية والغربية وهـي الهـدف المفضـل لـدى أبووليـد الصحـراوي وقادة داعش عمومًا، وعلى ضـوء ذلك صنعوا دعاية تسـتقطب من تعرضـوا لهـزات فكريـة داخـل تنظيم القاعدة نتيجة قبول الأخير الانخراط في معاهدات صلح مع الحكومات المحلية.

وارتكز الصـراع مؤخرًا بين القاعدة وداعـش فـي السـاحل والصحـراء، بعـد فترة تعايـش لم تـدم طويلا، على الاسـتحواذ علـى مصـادر التمويـل، خاصـة في المناطـق الحيويـة والغنية بالمـوارد والثـروات الطبيعيـة كموارد تعدين الذهـب في المنطقة الحدودية بين توغو وبنـين وبوركينا فاسـو، ما يقلل مـن اعتماد داعـش فقط علـى الخطف للحصـول على فـدى كمصدر رئيسـي لتمويله.

مـا جعل داعـش صامدًا فـي مضمار المنافسـة مـع القاعـدة تمتعه باسـتقرار وثبات علـى مسـتوى القيـادة وامتلاكه قيـادة رمزيـة قوية واصلـت المكوث على رأس التنظيـم على مدار سـنوات طويلة، ممثلـة فـي القيـادي المخضـرم أبووليد الصحراوي، مقابل معاناة القاعدة من فقد قادته المؤثريـن وآخرهم عبدالملك دروكدال (أبومصعب عبدالودود).

ما جرى مؤخرًا من اسـتهداف لقادة داعش في السـاحل والصحراء الكبرى وفـي مقدمتهم أبووليـد الصحراوي قد يعدل موازيـن القوى بين داعش والقاعـدة بعـد أن رجحـت الكفة لصالـح داعـش؛ حيـث صـار التنظيمان الآن سـواء في فقدان القـادة الكبـار المؤثرين وربما سيتساويان لاحقًا في التناحر والانقسامات الداخلية.

التنظيمـان اللـذان مـرا بمرحلـة تعايش في منطقة الساحل قبل أن ينقلبا إلـى الاقتتال، وهو مـا وضح من طبيعة ومستويات المواجهات التي قادها داعش ضـد القاعـدة بداية من ديسـمبر العام الماضي والتي سـقط فيهـا مئات القتلى والجرحى من الطرفين، لن تكون لأحدهما خلال المرحلة المقبلة مزية على الآخر في مـا يتعلق بالحضـور القيـادي الرمزي الـذي حافـظ عليه داعـش فـي الفترة الماضية عبر إفلات قادته من الاستهداف الغربي.

التمهيد للقاعدة

تميز أبووليد الصحـراوي بالغلظة وقلـة الـكلام واعتمـد سياسـة حـرب العصابات والصدمـة والترهيب، وعبر تلك الصفات تمكن مـن أن يكرس نفوذه كقائد مطلق لتنظيم الدولة الإسلامية في الصحراء الكبرى، ويسعى لإقامة مشروع ديني كبير بمنطقة الحدود المشتركة بين مالي والنيجر وبوركينا فاسـو وبسـط الهيمنة الجهادية على الساحل الأفريقي الممتـد على طول خمسـة آلاف كيلو متر أسفل الصحراء الكبرى.

وكان الصحـراوي، الـذي انتقل من عضـو فـي جبهـة البوليسـاريو التي تطالب بانفصـال الصحراء المغربية عن المغرب إلى صفوف الجماعات التكفيرية المسـلحة، مولعًا بالزعامـة والتفرد بها؛ لذلك انفصل عن شريكه الجزائري مختار بلمختار الذي أسس معه حركة التوحيد والجهاد في غرب أفريقيا مفضلًا مبايعة زعيم داعش السابق أبوبكر البغدادي.

إحـدى أهم العمليـات النوعية التي نفذها الصحراوي ضد الأهداف الغربية، وهـي هجومه في النيجر عام 2017 الذي أسفر عن مقتل أربعة عسكريين أميركيين وأربعة عناصر من جيش النيجر، نفذها كرسـالة قوة لقادة القاعـدة حيث واكب العملية اندماج تنظيمات موالية للقاعدة بالمنطقة ما صنع تكتلًا قويًا من شأنه أن يمهد لاكتساح زعيمه المالي من الطوارق إياد أغ غالي في مواجهة منافسيه.

والصحـراوي الـذي بـدأ عملياتـه الملفتـة ضـد المصالح الغربيـة بخطف إسبانيين وإيطالية سنة 2011 طالبًا فدية مقابـل إطلاقهم قدرهـا 15 مليون يورو، كان لديـه ميل كبير إلـى التفرد بالقيادة ويتوجس من بروز قائـد في القاعدة أو في داعش ينافسـه على نفوذه ومكانته، فضلًا عـن أنه كان يعتنق أفـكارًا قريبة من قناعات داعش ولم يكن يتردد في شن هجمات علـى القـوات الأجنبية وقوات النيجـر عنـد الحدود مع مالـي، وأظهر لامبالاة بقتل مدنيين.

ولم تهدف العديد من العمليات التي نفذهـا أبووليـد الصحـراوي فقط إلى إحداث صدى خارجي وتخويف الغربيين إنمـا هدفت أيضا إلى إثبـات قوته على السـاحة وبعث رسـالة مفادهـا لا أحد يستطيع التغطية على زعامته وأن تكتل القاعدة في الساحل والصحراء غير قادر على تهميش تنظيمه.

هل حقا موريتانيا معرضة للتوترات؟

أحمد حفيظ
كاتب موريتاني

في العدد الصادر يوم الجمعة 17/09/2021 من صحيفتكم المحترمة (صحيفة العرب) تم تناول الشأن الموريتاني من خلال مقال (تحليلي) موسوم بـ"موريتانيا معرضة لتوترات أمنية وإرهابية" حمل بين طياته الكثير من المغالطات والاضطرابات. كما أبان عن عدم عمق اطلاع كاتبه على الشأن الموريتاني بصورة خاصة، وشأن منطقة الساحل والصحراء بصورة أعم، لذلك نود من خلال هذا الرد إنارتكم، وإنارة قرائكم الكرام حول الشأن الموريتاني على الأقل، فصحيفة العرب بما تحمله من تاريخ في وجدان القارئ العربي، وبما حافظت عليه من ثقته، يستحق عليها الصدق، وتليق بها المصداقية.

يبني المقال فرضيته (عرضة موريتانيا للتوترات الأمنية والإرهابية) على مجموعة من العوامل الخارجية والداخلية، حاملا بين ثناياه الكثير من المغالطات المكشوفة بشأنها:

أولا: العوامل الخارجية: يزعم المقال أن السبب الخارجي للتوترات، التي يمكن أن تتعرض لها موريتانيا، هو ما تشهده منطقة الساحل والصحراء من تصاعد الهزات الأمنية والسياسية، ورغم أننا لا نزعم لهذه المنطقة الاستقرار ولا الأمن، فإننا نجزم بأن وضعها (الراهن) لا يمكن مقارنته بوضعها سنوات 2012/2013/2014، إذ لم تكن تعاني من انقلابات وحسب، أو هجمات إرهابية، بل أكثر من ذلك، عانت من احتلال الإرهابيين لأجزاء كبيرة منها، وإعلانهم "دولهم" فيها (لنأخذ شمال مالي وجنوب ليبيا مثالا لذلك) ولا يخفى على متابعي الشأن الموريتاني أن الواقع السياسي الموريتاني – كما الأمني – كان أكثر "رخاوة" أيامها وأقل صلابة، إذ كانت موريتانيا قادمة لتوها من انقلاب عسكري (هو الأول على رئيس منتخب) وانتخابات محل شك من جل الفرقاء السياسيين (انتخابات الباء الطائرة) وكان الجيش الموريتاني (نفسيا وعضويا) أقل جاهزية بكثير من حاله اليوم، إذ كانت عمليات الإرهابيين ضده (المغيطي، نواكشوط، الغلاوية، حاسي سيدي..) تلقي بظلالها الثقيلة على نفسيات الجنود، تماما مثلما كان انعدام – أو تواضع – المعدات والتجهيزات عقبة صلبة في مواجهة متكافئة مع أي عدو محتمل.

تضاف إلى ذلك محاولة البعض – داخليا – استنساخ ما عُرف بـ"الربيع العربي" بكل خطاباته المحفزة للقلاقل والبلابل.. والمستثمرة في جميع مكامن الغضب والهشاشة والتوتر (عرقيا وفئويا وأيديولوجيا..)، إذن يتضح أن الإقليم كان أكثر تحفيزا للتوترات، أيامها، منه اليوم، وأن الواقع السياسي والأمني للبلد، أيضا، كان أدعى لاستفزاز التوترات والانفعال به..!

أما الواقع السياسي والأمني اليوم، فهو مغاير تماما، إذ يتمتع رأس النظام القائم (محمد ولد الشيخ الغزواني) بكل الشرعية القانونية والأخلاقية، إذ أجمعت الطبقة السياسية الموريتانية (تقريبا) على نزاهة وشفافية الانتخابات التي أتت به إلى السلطة. كما أنها مثلت أول انتخابات في البلد يسلم السلطة فيها رئيس منتخب لرئيس منتخب. كما يتفق جميع الفرقاء اليوم كذلك على أهليته (الأخلاقية) لقيادة البلد، واعتباره شريكا جديرا بتلك المسؤوليات، التي يأتي الأمن على هرمها، إذ من المعروف أن جاهزية الجيش الموريتاني الآن لا يمكن مقارنتها بجاهزيته في أي وقت سابق، وهو (أي الرئيس الحالي) مهندس تلك الجاهزية، وواضع مقارباتها، العسكرية والثقافية، حيث قاد الجيش الموريتاني في تلك الفترة، وهو من حوّله إلى جيوش (برية وبحرية وجوية) ليصبح أهم جيش حتى اليوم، باعتراف الشركاء الدوليين والإقليميين في منطقة الساحل والصحراء..!

ثانيا، العوامل الداخلية: يرى كاتب المقال أنه من عوامل "القابلية للتوتر" قضية ما وصفه بـ"تسلم السلطة من جنرال إلى جنرال" وقضية ما نسبه لمعهد إيطالي للدراسات من "عنصرية المور البيض ضد المور السود" ومن "وجود هياكل، لا تزال قائمة، للعبودية"!

تحتوي هذه النقاط على العديد من المغالطات ومن التدليس، فالرئيس محمد ولد الشيخ الغزواني (الذي تسلم السلطة في الأول من أغسطس 2019 بعد انتخابات نزيهة وشفافة) كان قد تقاعد قبل ذلك بحوالي سنة من الجيش الوطني، وفي ظروف طبيعية. كما أن الرئيس السابق كان قد استقال من الجيش الوطني قبل ترشحه لرئاسيات 2009 وهكذا يتضح أن هذا "الاستنتاج" بُني على تدليس جلي، فالجنرال حين يتقاعد أو يستقيل يصبح، وفق كل الأعراف والقوانين، مثل جميع المواطنين، فكم انتُخب من جنرال، متقاعد أو مستقيل، في أعرق الديمقراطيات وأرقاها..!

أما "قضيتا العنصرية والعبودية" فتحملان، بدورهما، مغالطة كبرى، أو – في أحسن الحال – جهل الواقع الموريتاني، فمن الصحيح أن ظاهرة العبودية كانت في المجتمع الموريتاني (كما هو حال كل مجتمعات الصحراء) لعهد ليس بالبعيد، لكن الصحيح أيضا أن هذه العبودية، على سوئها ومقتها، لم يصاحبها (تاريخيا) أي شكل من أشكال العنصرية، بل ظل "العبيد" و"أسيادهم" يتقاسمون المكان والمشاعر والثقافة.. حتى في ظل ممارسة تلك الظاهرة الأليمة وغير الإنسانية، فلم تكن الصلة "النَّسَبية" بهم تحط من القيمة، ولم يكن الشبه "الخَلقي" بهم، كذلك، يمس من المكانة.. وأكثر راديكاليي "الحركات الحرطانية" لم يتهموا "المور البيض" يوما بالعنصرية، وإن اتهموهم، دائما، بالاستعباد!

> «النخبة الحاكمة» لم تكن على مر تاريخ موريتانيا إلا مزيجا من الشرائح والفئات؛ ففي نظام ولد هيدالة حيث صدر أول قانون بتحريم العبودية؛ كان «الرجل الثاني» في النظام النقيب أبريكة ولد أمبارك رجلا من «المور السود»

هذا من الناحية الاجتماعية. أما من الناحية السياسية، فلم تكن "النخبة الحاكمة" على مر تاريخ موريتانيا إلا مزيجا من الشرائح والفئات، ففي نظام ولد هيدالة حيث صدر أول قانون بتحريم العبودية، كان "الرجل الثاني" في النظام (النقيب أبريكة ولد أمبارك) رجلا من "المور السود"، وفي أيام ولد الطايع كان ثمة شركاء من "المور السود" أقوياء وفاعلون في كل من النظام والمعارضة، أما اليوم فإن الرجل الثاني في الجهاز التنفيذي، بعد رئيس الجمهورية، رجل من "الحراطين". كما أن أهم مؤسسة ديمقراطية معارضة يترأسها "حرطاني".. هكذا يتضح أن "النتائج" بُنيت على فرضية خاطئة أو كاذبة، أو هما معا..!

أما "هياكل العبودية" المزعومة فليست أكثر دقة ولا موضوعية من "عنصرية المور البيض"، إذ جندت الدولة الكثير من الموارد والطاقات المالية والقانونية لمحاربتها، فتشكلت ترسانة قانونية تجاوزت القوانين إلى الدستور، وتجاوزت كذلك التحريم إلى التجريم، لمحاربة هذه الظاهرة. كما أُنشئت العديد من الهيئات والبرامج، وبأغلفة مالية عملاقة، لمواجهة آثار ومخلفات العبودية.

لا يعني هذا الرضاء المطلق عما تم، أو اعتباره نقطة النهاية، لكنه يعني الاعتراف بأن الدولة قدمت، وتقدم، الكثير لتصحيح تلك الاختلالات الاجتماعية التي ولّدتها العبودية وتاريخها.. مما يعني أن هذه اللحظة من أكثر لحظات البلد قربا من "الوضعية الطبيعية"، لذلك ليس من الموضوعية الاستقرائية، ولا من الواقع الملحوظ، اعتبارها لحظة تستدعي التوتر!